

المفارقة واستدعاء التراث

في قصيدة:

[ذهب الذين أحبهم]

د. صالح أبو إصبع

1. طقس القصيدة:

جاء أول شتاء بعد هزيمة حزيران، 1967، ليكون شتاء ليس ككل الشتاءات التي كان ينتظرها أهل الضفة الغربية وقطاع غزة ... فهذا الشتاء ذو لون آخر، ووقع الخطى فيه غريبة، ها هم جنود الاحتلال يدنسون أرض الوطن، والناس لا يملكون شيئاً يفعلونه... ويقف الشاعر مذهولاً بهول الفاجعة. هذا وطن بكامله يضيع ... في هذه القصيدة يغني الشاعر ببكائية للوطن ويظل يحلم مع الأمل.

2. النص:

تبدأ القصيدة في أحد مقاطعها من نقطة تبدأ مع الزمن وتنتهي به. إنها تسير مع دوران الأرض فالمقطع يبدأ بدورة من دورات الأرض بفصولها وتكون البداية مع "الشتاء" حيث يقول:
"جاء الشتاء وأنت ترتادين آفاق الشتاء"

ورأيت أشجار العذاب تطل من قلب المساء"
وتنتهي قصيدته كذلك بدورة أخرى من دورات الأرض كذلك
وهي تعاقب الليل والنهار حيث تنتهي القصيدة مع المقطع الأخير
والذي يقول فيه:

"في الليل يرتد البكاء المر منهراً إلى صدري
وأصبح يطول الليل يا دهري
وطني يضيع ولا أقول
أه من الليل الطويل"

وما بين الشتاء وما بين الليل، يخيم على القصيدة جو من التفجع
والبكاء والفراق والألم. ما بين الشقاء والليل ذهب الذين نحبهم. إن
القصيدة هي رحلة مع عذاب فردي لكنه ذو بعد جمعي: إنه عذاب
وطن كامل.

"ورأيت أشجار العذاب تطل من قلب المساء"
لا حور لا صفصاف لا زيتون يرفع رأسه نحو السماء"
ويعتمد الشاعر في تصوير المعاناة عن طريق سلسلة من
النوافي:

"لا حور لا صفصاف لا زيتون يرفع رأسه
نحو السماء
لا قلب جدتي العجوز

يدعو بأن يهمني المطر"

فالنفي هنا لوجود العدو والتعبير عن رفض الاحتلال، لأن المطر الذي هو خير ونعمة، يصبح غير مرغوب فيه في ظل الاحتلال، لأن خيره سيعطي ثمره للأعداء، إن التطلع نحو السماء يصبح نقمة في ظل الاحتلال، وها هو قلب الجدة لا يدعو بأن تهطل الأمطار لأنها لا تريد أن تصيب بخيرها الأعداء واختيار الجدة لم يأت عبثاً، فالجدة هنا الأصالة والصلة المستمرة بالوطن. ولكي يؤكد هذه الصلة بأنّها علاقة مستمرة عبر التاريخ بين الأحياء والأموات. تأتي خطوات الغزاة لتمتهن المقابر، وكأنها تعبر عن رغبتها في نفي التاريخ وانتمائنا لهذا الوطن ولهذا كانت صرخات الجدة:

"تمشي أمام البيت، تصرخ: يا ذئاب

حتى القبور!!"

كأنها خلال مفارقة تصويرية أرادت أن تقول حتى القبور (دنستموها) فما بالكم مع بيوت الأحياء!؟

هذا المقطع تحمل موسيقاه إيقاع الأسى والحزن من خلال استخدام قافية ساكنة أما المقطع الثاني، وهو مقطع قصير فيمثل صرخة مناجاة لأهل الوطن ولهذا يطلق قافيتها لتلائم تلك الصرخة ومن خلال هذا النداء المصاحب الاستفهام الاستنكاري يقول:

"يا أهل وادينا

ماذا بأيدينا

نبكي روابينا لو تنفع الأشعار"

هنا تكون الإجابة واضحة: لا شيء بأيدينا، لن تنفع الأشعار التي فيها نبكي روابينا ومن هنا ينتقل إلى المقطع الثالث ... فالبكاء الذي تساءل عنه في المقطع الثاني يصبح مرفوضاً ... "ويردني شبح الشباب عن البكاء".

إن الشباب هم الذين يمثلون الأمل وهكذا يتردد الشاعر إلى الواقع الذي يواجهه الشباب ... وما هو هذا الواقع؟ انظر إليه ماذا يقدم من خلال مفارقات تصويرية تعتمد على استخدامه للنوافي في أسطره الشعرية، وعلى أسلوب الالتفات في الصور الذي يقدمه لنا وكأننا نتابع شريطاً سينمائياً من الصور.

1. الغزاة السائرون كالطوفان.

2. المدن العربية التي لا تقف غاضبة في وجه الغزاة.

3. ينتقل إلى استنكار الحال الذي نحن فيه ومن خلال مفارقة تصويرية جميلة "كأنا لم نكن شيئاً ولا كنا جبلاً راسيات".

4. العودة إلى القدس المسبلة العيون ...

لقد قدم لنا الشاعر هنا صورة انتقاله من الربع الحنون ... إلى ربع حنون آخر ألا وهو الوطن حيث بدت ديار القدس مسبلة العيون، وكما يعمق الشاعر صورة الارتباط العاطفي والتاريخي فإنه يستعير صوت شاعر من التراث بقوله "وتلفت القلب" فهذه الجملة مقتبسة من قول الشاعر الشريف الرضي:

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لغب نضوي ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمئذ خفيت عنها الطلول تلفت القلب

إن هذا الاستدعاء لصوت الشاعر يحمل أكثر من دلالة، فاستخدام صوت تراثي يحمل معه رباط التاريخ الذي يربط صوت الشاعر التراثي بالحاضر، ويستحضر معه دلالة السياق الذي قيلت فيه ... والتي توحى بالطلل والخراب والذكرى ... وهذا كله يستدعي في المقابل صورة المحتل وتخريبه الوطن وذكريات الشاعر الجميلة مع الوطن. وليكون الاقتباس كذلك فاتحة كي (يتلفت القلب) إلى صورة من التراث يستحضرها في المقطع الرابع من القصيدة هذه الصورة التي تمثل صورة النبي (ص)، وأبي بكر حينما كانا يختبئان في غار (ثور) وكانت الحمامة تعشش على باب الغار الذي يغطيه نسيج العنكبوت. ويتجلى جمال التصوير في هذا المقطع من خلال المفارقة التصويرية التي يقدمها الشاعر صورة، فهناك سروتان تظللان الشارع، ونحن نعرف أن شجر السرو وطوله لا يتيحان ظلاً وارفاً لأن شجرة السرو ليست وارفة الظلال، ولكنها تحمل ميزة أخرى وهي ميزة الارتفاع والسمو وكأنها رمز الكبرياء والكرامة التي تظلل هذا الشارع الذي يمتد ليشمل كل البلاد.

"يا سروتان تظللان الشارع

المهود في أقصى الشمال

يمتد من باب المدينة راکضاً حتى الجبال"
ولكن هذه الجبال أصبحت مرتعاً لقوات الاحتلال التي شبهها
بالثعالب:

"متعرجات الخطو تمشي في مساربها الثعالب"

وتبلغ جمالية التصوير عند الشاعر حينما يقول:

"هتف اليمام على علائها وعششت العناكب"

في سقف كل مغارة تحمي جنود الاحتلال"

إذ أنه يقدم لنا صورة تستحضر التاريخ وتفارقه في آن واحد:

1. فهنا جنود الاحتلال يختبئون في مغارات تعشش العناكب في
سقفها فهي مغارات محمية وبدون رعاية إلهية.
2. بينما كانت العناكب تعشش على باب مغارة الرسول وصاحبه
لترعاها العناية الإلهية.
3. وهنا يهتف اليمام هنا يحلق على علالي المغارات بينما كانت
الحمامة قد عششت في المغارة.

وكأنه يقول أن الرعاية الإلهية لا يمكن أن تكون مع المحتلين، فما
هو اليمام يهتف من أعالي المغارات، وكأنه يرشد على المحتلين،
وتعشش العناكب، في سقف المغارات لا على أبوابها لأنها لا تريد لها
الحماية. إن هذه المفارقة، ويتابع الشاعر قصيدته باستخدام قافية
النون ساكنة وكأنها تعبير عن الأنين ولينتقل بعد ذلك في أحد

المقاطع إلى استحضار صورة تراثية أخرى وهي صورة نقر الدفوف عند استقبال الرسول عند وصوله إلى المدينة حينما غنوا له "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع".

كأن نقر الدفوف استقبالاً للمخلص، وهنا الصورة تحمل معها دعوة للخلاص مع الأمل بهطل الغيث محتجب الحصول لوجود الأعداء المحتلين وها هو الشيخ يرفع صوته الآن مخاطباً ربه قائلاً:

" يا ربنا الجبار
قد أحرقتنا النار
في أرضك الجرداء
ماتت أغانينا"

إنها دعوة الخلاص من النار المحرقة (نار الأعداء) ودعاء إلى عودة الخصب إلى الأرض ودعاء إلى أن تحيا الأغاني من جديد ليوشي ذلك كله إلى الأمل. وقدم لنا صورة آملة في إنهاء الخريف الذي خيم على الوطن:

"تهز أفئدة الصبايا البيض أوراق الخريف"

ولكن الصورة هنا يكتنفها الإبهام، إذ إنه لماذا قال الشاعر أفئدة الصبايا البيض...؟ وهل البياض صفة للأفئدة أم الصبايا؟ وكذلك لا يتضح لنا كيف تهز الأفئدة أوراق الخريف، هل يريد الشاعر أن يقول لنا أن الأفئدة البيضاء للصبايا بما تمثله من نقاء وطهارة وبراءة تهز أوراق الخريف لتبشر بفصل جديد ينتهي معه الاحتلال الصهيوني.

ويستخدم الشاعر كثيراً أسلوب الالتفات فبعد أن بدأ فقرته الشعرية
بضمير المتكلم:

(الآن اسمع في الضحى نقر الدفوف) ينتقل الشاعر إلى

استخدام ضمير الغائب

"ويمر تحت السروتين مغنياً:

هل مرّ تحتكما أليفي؟؟

يبكي وينشج دمة

والريح تنشج والمطر

يهمي على القصر المنيف

هل مر تحتكما وليفي؟؟"

واستخدام أسلوب الالتفات بكثرة يمثل نوعاً يشير إلى صوت
الشاعر الذي يعبر فيه عن قضية شعب وهنا إلى صوت صاحب
شاعرنا الذي بات يبحث عن صاحبه، وحيث أن الاحتلال جاء ليشتت
الآلاف ويفرق بينهم، ويكون مع صدى صوته وهو يغني وليس سوى
ارتداد البكاء، وتكون استجابة الطبيعة ليست سوى رد على غناؤه
وبكائه، فالرياح تنشج بالبكاء وتكون الإجابة لسؤال: هل مر تحتكما
أليفي؟ واضحة ويعود الشاعر مرة أخرى ليرتد صوته إلى صوت
الشاعر ذاته حيث يقول:

"في الليل يرتد البكاء المر منهمراً إلى صدري"

وتكون خاتمة القصيدة هذه، صورة للمعاناة والمأساة التي أمت
بشاعر يفقد وطنه، وتطول لياليه، ويكون آخر القصيدة استحضاراً
للتاريخ كله حينما يستعير صوت الشاعر عمر بن معد يكرّب في
قصيدته المشهورة يعبر فيها عن ألم المعاناة والوحدة في زمن تفرق
فيه الخلال والأخوان ولكنه لا يتحسر على ذلك على الرغم من أنه
فقد أحبائه في وطنه.